الفصل الثالث

النظام الحربي أيام الرشيد

- **أولًا : الجيش أيام هارون الرشيد.**
- **ثانيًا : الشرطة أيام هارون الرشيد.**
- **ثالثًا : أشهر القادة العسكريين أيام هارون الرشيد.**

obeikandl.com

”كان من أمْيَز الخلفاء، وأجلّ ملوك الدنيا، وكان كثير الغزو والحج“.

الذهبي: تاريخ الإسلام (4/ 1223)

obeikandl.com

أولًا: الجيش أيام هارون الرشيد

تميزت الخلافة العباسية منذ نشأتها أنها تمتلك جيشًا قويًا، كثير العدد والعدة، مجهزًا بأحدث الأجهزة الحربية والأسلحة الثقيلة لمقاومة الأعداء وحماية الدولة من الخارجين. ويعد هارون الرشيد من أكثر خلفاء العباسيين اهتمامًا بالجيش وتسليحه وتربية القادة العظام الذين يردعون الخارجين ويقودون الجيوش جهادًا وينشرون الاستقرار في ربوع الخلافة كلها. وقد انتهج الرشيد سياسة غريبة في قيادة الجيوش؛ حيث قرَّب إليه العنصر الفارسي، وجعلهم في مواضع القيادة والصدارة، ولكن يبدو أن هذه السياسة كان لها من المخاطر ما جعل الرشيد يستدركها قبل فوات الأوان.

فقد استمرت قيادة الجيش العباسي بيد العرب إلى أن تولى هارون الرشيد الخلافة، فقرب البرامكة وأشركهم في قيادة الجيوش، فهذا يحيى بن خالد البرمكي وزير الرشيد خلال الفترة من (170هـ إلى 173هـ)، وبعد سنة 173هـ دعي بالأمير بعد أن سيطر على إدارة الجيش، فاجتمعت له الوزارتان السيف والقلم، ثم أصبح أبناؤه فيما بعد أمراء، وهما: موسى بن يحيى ومحمد بن يحيى، وقد جعل الرشيد الفضل بن يحيى البرمكي قائدًا للجند في خراسان، وفوضه تفويضًا كاملًا فيها سنة 178هـ، فاتخذ جندًا من العجم الأتراك سماهم (العباسية)، بلغ عددهم خمسمائة ألف رجل، ثم قدم بعشرين ألف رجل منهم إلى بغداد فسموا (الكرمينية)، ولما أحس الرشيد بخطر البرامكة (الفرس)، عاد إلى وضع قيادة الجيوش في يد القادة العرب من أمثال علي بن عيسى بن ماهان ويزيد بن مزيد الشيباني وهرثمة بن أعين، وكان جعفر بن يحيى البرمكي رئيسًا لحرس الرشيد فأخذ من الكرمينية ألف جندي كحرس للقصور، وكان الرشيد يجعل للقواد وأمراء الأجناد ليلة يسألهم عن الأخبار ويذاكرهم أمر الأمصار[1].

(1) محمد عبد الحفيظ المناصير: الجيش في العصر العباسي، ص 87 - 88. بتصرف.

عناصر الجيش العباسي

وأما عناصر الجيش العباسي أيام الرشيد فقد كانت مكونة من عناصر متعددة، منها: العرب والخرسانية والموالي والأتراك والأبناء والغلمان والشاكرية والمغاربة والصعاليك والزنج وغيرهم. ولعل أبرز هـذه العناصر التي ظهرت في أوائل عهد الرشيد عنصر الأبناء، فيقال: (أبناء أهل خراسان) و(أبناء الدولة) و(أبناء الشيعة)، ويطلق هـذا المصطلح بأشكاله المتعددة على ذوي الأصول الخرسانية، أي أبناء وأحفاد أهل خراسان جند الدعوة العباسية.

وقد سكن الأبناء بعض مدن العراق بالإضافة إلى بغداد، وقد وجد هـارون الرشيد في مدينة الأنبار عندما زارها سنة 180هـ عددًا من أبناء أهل خراسان يقطنونها، وقد حافظوا على وحدتهم وانسجامهم. وقد ورث الأبناء مراكز آبائهم في الدولة والجيش، إلا أنهم مالوا إلى الاستقرار والدّعة بدلًا من إخماد الفتن والثورات؛ ولذلك لما وجد الرشيد ميل الأبناء إلى الدعة والسكون اتجه إلى خراسان نفسها، وقد أوكل هـذه المهمة إلى الفضل بن يحيى البرمكي، الذي نجح في جلب عناصر جديدة (العباسية) موالي أمير المؤمنين، وقد أرسل منهم عشرين ألفًا إلى بغداد، فأرسلهم الرشيد إلى الحدود البيزنطية.

ويبدو أن ولاء الجند العباسية أو الكرمينية لآل برمك أزعج هـارون الرشيد فقام سنة 179هـ بعزل الفضل البرمكي عن خراسان وجعلها لعلي بن عيسى بن ماهان، ثم قام بتسريح الجند العباسية، وقد انضم جزء منهم بعد ذلك إلى ثورة رافع بن الليث. كما قام الرشيد بتسريح الجند العباسية الذين في بغداد إلى الحدود البيزنطية وأبقى فرقة عربية في بغداد لحفظ التوازن[1]. ويبدو من هـذا أن ميل الرشيد للبرامكة وتقليدهم زمام الحكم والجيش كان ميلًا عاطفيًا من الرشيد لمؤدبه ومربيه يحيى البرمكي، ولكن سرعان ما رجع عن ميل الهوى إلى ميل العقل

(1) محمد عبد الحفيظ المناصير: الجيش في العصر العباسي، 95 – 119. بتصرف.

وحفظ الملك.

ولم يقتصر الرشيد في عناصر جيشه على العرب والفرس فقط، بل نجد العنصر التركي حاضرًا وفي قصر الرشيد نفسه، فقد اتخذ الرشيد الترك في بلاطه ومنهم خادمه خاقان، وإخشيد، وأبو سليم فرج الذي ولاه الأهواز. بل واتخذ الرشيد فرقة من الأتراك من حرس الخليفة. كما اتخذ الرشيد حامية تركية مقيمة لإقرار النظام وقمع الفتن في مدينة زَرَنْج (قصبة سِجِسْتَانُ) سنة 180هـ[1]. وقد بلغ عدد الجيش العباسي مئات الألوف الذين يكوِّنون الجيش النظامي للدولة، وكانت رواتبهم تدفع لهم بانتظام[2].

(1) محمد عبد الحفيظ المناصير: الجيش في العصر العباسي، 118 – 119. بتصرف.

(2) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي – العصر العباسي الأول، 2/ 223.

obeikandl.com

ثانيًا: الشرطة أيام هارون الرشيد

من النظم الإدارية الهامة في العصر العباسي عامةً نظام الشرطة، والشرط جمع شرطة وشرطي، وهم أعوان السلطان لتتبع أحوال الناس وحفظهم، ولإقامة الحدود[1]. ويقول ابن خلدون: "وكان أصل وضعها في الدولة العباسية لمن يقيم أحكام الجرائم في حال استبدادها أوّلا، ثمّ الحدود بعد استيفائها، فإنّ التّهم التي تعرض في الجرائم لا نظر للشّرع إلّا في استيفاء حدودها، وللسّياسة النّظر في استيفاء موجباتها، بإقرار يكرهه عليه الحاكم إذا احتفّت به القرائن، لما توجبه المصلحة العامّة في ذلك، فكان الذي يقوم بهذا الاستبداد وباستيفاء الحدود بعده إذا تنزّه عنه القاضي يسمّى صاحب الشّرطة، وربّما جعلوا إليه النّظر في الحدود والدّماء بإطلاق، وأفردوها من نظر القاضي، ونزَّهوا هـذه المرتبة وقلّدوها كبار القوّاد وعظماء الخاصّة من مواليهم"[2].

وهكذا أنيط بنظام الشرطة حفظ الأمن في جميع أنحاء الخلافة العباسية، لذلك نرى أن صاحب الشرطة كان يُختار من علية القوم ومن أهل العصبية والقوة، وهو أشبه بالمحافظ في هـذا العصر؛ لأنه عبارة عن رئيس الجند الذين يساعدون الوالي على استتباب الأمن وحفظ النظام والقبض على الجناة والمفسدين.

ولم تكن مهمة الشرطة عامة التنفيذ في طبقات الناس، ولكن كان حكمها على أهل الريب، والضرب على أيدي الرعاع والفجرة[3]. ومن أشهر أنواع الشرطة

(1) عبد الحي الكتاني: التراتيب الإدارية، 1/ 22.

(2) ابن خلدون: المقدمة، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، 2/ 635.

(3) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي - العصر العباسي الأول، 2/ 221. بتصرف.

شرطة الحرس، وهم على أنواع: منهم الحرس الشخصي للخليفة وأقربائه، ومنهم حرس جسور المدينة، ودوائر الدولة الرسمية، ومنهم حرس الأبواب الرئيسية للبلد وأسواره، بالإضافة إلى الحرس الليلي لبغداد ومدن العراق الأخرى[1].

وقد ذكر خليفة بن خياط وابن حبيب واليعقوبي أبرز من تولى الشرطة أيام هارون الرشيد، وهم:

القاسم بن نصر بن الهيثم الخزاعي ثم عزله، وجعل خزيمة بن خازم ثم عزله، وجعل المسيب بن زهير ثم عزله، وأعاد خزيمة بن خازم ثم عزله، وجعل عبد الله بن مالك ثم عزله، وجعل عبد الله بن خازم ثم عزله، وأعاد خزيمة بن خازم ثم عزله، وأعاد عبد الله بن مالك ثم عزله، وأعاد عبد الله بن خازم ثم عزله، وجعل علي بن الحجاج ثم عزله، وجعل إبراهيم بن عثمان بن نهيك العكي ثم قتله[2]، وجعل مكانه وهب بن إبراهيم وسماه عثمان بن عثمان ثم عزله، وجعل ابن الشخِّير حتى مات هـارون الرشيد[3].

والملاحظ من تتبع الأسماء أن الرشيد كان دائم العزل والتولية لرجال شرطته، وهذا وإن كان في ظاهره خللًا إداريًّا، إلا أن العذر له، فقد كان خزيمة بن خازم من كبار رجال دولته ومن عظماء قادته العسكريين الذين كان يعتمد عليهم اعتمادًا كليًا في قمع الخارجين والقضاء على الثورات والقلاقل في نواحي الثغور وغيرها،

(1) دريد عبد القادر نوري: الشرطة في العراق خلال العصر العباسي الأول، مجلة المؤرخ العربي، السنة الثانية عشرة – العدد 29 – 1986م، ص224.

(2) قتله الرشيد سنة 187 هـ؛ لأنه حزن على مقتل البرامكة ولا سيما جعفر بن يحيى البرمكي ثم خرج من حيز البكاء إلى حيز الانتصار لهم والأخذ بثأرهم، فكان إذا شرب النبيذ مع جواريه أخذ سيفه، ويقول: واجعفراه! واسيداه! والله لأقتلن قاتلك ولأثأرن بدمك. فعلم الرشيد بذلك من ابنه عثمان فأمر الرشيد بقتله. انظر: ابن كثير: البداية والنهاية 13/ 647 – 648.

(3) خليفة ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، 1/ 465. ابن حبيب: المحبر، 1/ 375. اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، طبعة النجف، 3/ 159. وقد اعتمدنا في ترتيب من تولى شرطة الرشيد على ما ذكره ابن حبيب في المحبر.

فلذلك كان يعزله عن شرطته ثم يوليه إمارة أرمينية وأذربيجان أو البصرة ليقيم الاستقرار في ربوعها. وأما عبد الله بن خازم فقد كان من كبار رجال دولة الرشيد كذلك، وقد ولاه طبرستان ورُويَان سنة 180هـ.

obeikandl.com

ثالثًا: أشهر القادة العسكريين أيام هارون الرشيد

كانت قيادة الجيش في العصر العباسي الأول من أهم مناصب الدولة، وقد تولى الخلفاء العباسيون الأوائل منصب قائد الجيش، مثل المنصور والمهدي والرشيد. ولا شك أن الرشيد كان من أعاظم القواد، ولا شك أن قادة جيشه ودولته كانوا كذلك.

ومن أشهر القادة العسكريين أيام الرشيد رحمه الله:

1 - هرثمة بن أعين

واحد من أهم الشخصيات العسكرية في التاريخ الإسلامي، وأحد عظماء القادة في دولة بني العباس قاطبة، وقد تميز بعقلية عسكرية وسياسية فذة، فهو درع خلفاء بني العباس في القضاء على حركات المتمردين والخارجين وخاصة في الثغور الإسلامية وبلاد إفريقية وخراسان. وكان هرثمة يلقب بـ(ذي الحكمين).

احتل هـرثمة بن أعين مكانة كبيرة في قلوب خلفاء بني العباس وقلب الرشيد خاصة، فلهرثمة جميلة على الرشيد لم ينسها له طوال أيامه، فهو صاحب الفضل الأول بعد الله تعالى في إتمام عقد الخلافة لهارون، فحين عزم الهادي على خلع الرشيد وبيعة ولده جعفر، كان هـرثمة بن أعين أول الرافضين لتلك البيعة، وقد عزم الهادي على قتل الرشيد ويحيى بن خالد البرمكي، إلا أنه عجلت به منيته، فجاء هـرثمة بن أعين وأقعد الرشيد على كرسي الخلافة، فدعا الرشيد بيحيى البرمكي واستوزره، وأمر بإنشاء الكتب إلى الأطراف بجلوسه للخلافة وموت الهادي[1].

ويبدو أن القائد هـرثمة بن أعين كان محبوبًا لدى الرشيد ومحل ثقته في أداء

(1) انظر: الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 230. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 5/ 273.

واجباته ومهامه؛ لذا احتل عدة مناصب عسكرية وإدارية في آن، فقد ولاه الخليفة هـارون الرشيد واليًا على مصر سنة 178 هـ، ثم عينه واليًا على إفريقية سنة 179 هـ، وتمكَّن من ضبط البلاد والقبض على المعارضين، أمثال ابن الجارود الذي عبث بأمن إفريقية، فتمكن هـرثمة من القبض عليه وإرساله إلى الرشيد، وبذلك فرض الأمن والنظام في إفريقية، وجدد ما تخرب من المدن والموانئ والمنشآت. ومن جملة أعمال هـرثمة بن أعين أنه بنى سور طرابلس الغرب من جهة البحر، والقصر المعروف بالمستنير، وكان الهدف من هـذه الأعمال هـو أنه كان مولعًا بالعمران، وكان يهدف إلى ترك أثر في كل مكان يليه في عمل، فضلًا عن ذلك كان يهدف إلى إعادة ثقة الناس بالدولة العباسية. ومن إنجازات هـرثمة في القيروان – التي عُدَّت من محدثاته سنة 180 هـ خلال مدة إقامته بالقيروان – أن قام بحفر بئر فيها ويسمى بئر روطة، ويعد هـذا البئر من أقدم الآبار بالقيروان ولم يذكر اسم بئر روطة إلا في القرن الخامس الهجري، وكان البئر واسع الفم، لها سفرة رخام، غزيرة الماء، وأنشأ الرباط والتي ترتبط بالجهاد أو حراسة الثغور البحرية.

وبلغـت القيـروان أوج تطورهـا فـي عهـد واليهـا هـرثمـة بـن أعيـن (179 – 181هـ/ 793 – 795م)، حيـث تولى هـرثمة ولاية المغرب سـنتين ونصف، إلا أنـه اعتذر عنها، فاسـتقدمه الرشـيد وجعله على حرسـه، ثم ولاه غـزو الصائفة سـنة 191 هـ وفي سـنة 192 هـ عزل علي بن عيسى بن ماهان عن خراسان وولاها هـرثمة بن أعين، وظل بها حتى وفاة الرشيد سنة 193 هـ[1].

ولما بدأت الفتنة بين الأمين والمأمون، انحاز إلى المأمون، فقاد جيوشه

(1) انظر: : تاريخ الرسل والملوك، 8/ 256، 323. ابن كثير: البداية والنهاية، 13/ 604، 14/ 6. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، 2/ 88، ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، 1/ 89. سميعة عزيز محمود: القائد العباسي هرثمة بن أعين ودوره السياسي والعسكري في العصر العباسي الأول، جامعة ديالي، كلية التربية الأساسية، مجلة الفتح، المجلد – العدد 36، أكتوبر 2008م. ص91 – 93، بتصرف.

وأخلص له الخدمة حتى سكنت الفتنة بمقتل الأمين سنة 198هـ. وانتظمت الدولة للمأمون، فنقم المأمون عليه أمرًا، قيل: اتهمه بممالأة إبراهيم بن المهدي أو بالتراخي في قتال الطالبيين وأبي السرايا الثائر، فدعاه إليه المأمون وشتمه وضربه وحبسه. وكان وزير المأمون الفضل بن سهل يبغضه، فدس إليه من قتله في الحبس سرًا بمرو سنة 200هـ[1].

2 - يزيد بن مزيد الشيباني

فارس بني العباس ووالي غزواتهم أبو خالد يزيد بن مزيد بن زائدة الشيباني[2]، واحد من أمراء العرب المعدودين، وقلائل الشجعان المعروفين، والأجواد المذكورين، وكان يزيد بن مزيد مع فرط شجاعته وكرمه من دهاة العرب.

ولد يزيد بن مزيد في الربع الأول من القرن الثاني الهجري، ونشأ وترعر في البادية وكانت أسرته أسرة عسكرية رفيعة المستوى على رأس رجالاتها القائد الشهير والشخصية البارزة معن بن زائدة عمه الذي كان يدنيه ويعتمد عليه ويقدِّمه على بنيه لما يرى فيه من فتوة وعصامية.

بدأت رحلة يزيد بن مزيد العسكرية في سن مبكرة، وذلك منذ خلافة المنصور العباسي؛ حيث كان رفيق عمه معن بن زائدة في حملاته العسكرية الرامية إلى إخضاع الخوارج في اليمن وسجستان، وفي عهد الخليفة المهدي علت رتبة يزيد حتى صار من خواص المهدي وأشهر قواده، واختاره لقيادة الحملة العسكرية التي جهزها سنة 160هـ للقضاء على فتنة يوسف الْبَرْمِ في الجنوب الشرقي من خراسان، وقد استطاع يزيد أسر يوسف وأرسله مقيدًا إلى المهدي مما عزز مكانته العسكرية في الدولة وجعله بطلًا فذًّا في أعين الناس.

---

(1) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 542 – 543. الزركلي: الأعلام، 8/ 81.

(2) من الكتب الهامة في سيرة يزيد بن مزيد، كتاب: عبد الجبار الجومرد: غرة العرب من شيبان يزيد بن مزيد القائد الأعلى لدولة هارون الرشيد، بيروت – دار الطليعة 1961م.

كما كان يزيد بن مزيد رفيق الرشيد رحمه الله عندما أرسله أبوه المهدي إلى غزو الروم سنة 165هـ، وفيها تحدى يزيد بن مزيد الشيباني خصمه نقيطا قومس القوامسة (أي رئيس أركان الجيش الرومي)، والتقيا بين الجيشين وعلى مرأى من المعسكرين فبرزا فتجاولا على فرسيهما ساعات من النهار قُتل فيها حصان يزيد فهجم على خصمه فأرجله ثم تجالدا بالسيوف وتصارعا على الأرض حتى ظن الناس أنهما سيقتلان بعضهما البعض، ولكن يزيد أثخن صاحبه فقتله، وعندها أطبق المسلمون على الروم فلم تمض ساعة حتى انكشفوا عن الميدان هاربين وتبعهم يزيد حتى حاصر مدينة بنقمودية بلد الدمستق (وزير الدفاع الرومي) الذي كانت مستودعات السلاح والذخائر بين يديه فلم تطل مقاومته بل استسلم لـيزيد، وتبع يزيد بعد ذلك رحلته في بلاد الروم إلى أن ألقى مراسي جيشه حول أسوار القسطنطينية عاصمة البيزنطيين مقسِمًا أن يخربها أو تدفع الجزية لبيت مال المسلمين، وقد رضخت الملكة إيريني (أغسطة) الوصية على عرش ولدها الطفل (قسطنطين السادس بن أليون) للجزية، وكانت حملة يزيد بن مزيد الشيباني هذه على القسطنطينية أول حملة برية يصل فيها المسلمون بطريق البر إلى أسوار العاصمة الرومية. وقد عاد يزيد بجيشه ليستقبله المهدي في قصر الخلد (قصر الخلافة) في حفل استعراضي رائد كان أجمل ما فيه وأبهاه منظر الجموع الضخمة من أسرى المسلمين المستخلصين من سجون الروم بعد يأس وقنوط، فكان يومًا لم تشهد الأمة المسلمة أعظم سرورًا وابتهاجًا منه[1].

ومن أجل هذه الوقعة العظيمة وغيرها قال مروان بن أبي حفصة: لقيت يزيد بن مزيد وهو خارج من عند المهدي، فأخذت بعنان دابته، وقلت له: إني قلت فيك ثلاثة أبيات أريد بكل بيت منها مائة ألف. قال: هات، لله أبوك، فأنشأت أقول:

يا أكرم الناس من عجم ومن عرب بعد الخليفة يا ضرغامة العرب

(1) انظر أخبار يزيد في تلك الحملة في: الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 152 – 153.

أفنيت مالك تعطيه وتنهبه يا آفة الفضة البيضاء والذهب

إن السنان وحدُّ السيف لو نطقا **لأخبرا عنك في الهيجاء بالعجب**

وبعد سنتين من رحلة يزيد بن مزيد إلى بلاد الروم انتدبه الخليفة المهدي عام 167هـ للعمل على إخماد ثورة اندلعت في طبرستان بزعامة (نداهرمز وشروين صاحبي طبرستان) من زعماء القبائل الجبلية الشرسة، فرحل يزيد إلى طبرستان مع قوة اختارها لرفقته بعناية وخبرة، وبعد مضي سنتين من الكر والفر استطاع يزيد بمكره ودهائه أن يوقع بهما شر هزيمة، ويعود بعدها سنة 169هـ إلى بغداد مقر الخلافة ليستجم من عناء تلك الرحلة القاسية.

وتتابع الأحداث الجسام في تاريخ الدولة العباسية حتى تؤول الخلافة إلى هارون الرشيد سنة 170هـ، ووقتها علت رتبة يزيد بن مزيد إذ كان من رجالات الدولة المعدودين أيام الرشيد، وقد سبقت مواقفه وشجاعته وطار ذكره بذلك في الآفاق، حتى صار من أخلص قواد الرشيد ومقربيه، وكان فيما وليه أيام الرشيد أعمال الموصل والجزيرة وإمارة اليمن ثم ولَّاه أرمينية سنة 171هـ، ثم عزله عنها واستعمل عليها أخاه عبيد الله بن المهدي سنة 172هـ؛ ليبقيه لمهامه العسكرية الكبرى.

وفي سنة 178هـ خرج الوليد بن طريف الشاري وكانت تلك أخطر ثورة للخوارج ضد العباسيين، فقد وصلت طلائع قواته إلى أسوار بغداد دار الخلافة نفسها، ولم تستطع الحملات المتعددة أن تنال من الوليد بن طريف حتى انتدب هارون الرشيد يزيد بن مزيد الشيباني للقائه وكسر شوكته، فقال الشاعر:

لا تبعثن إلى ربيعة غيرها إن الحديد بغيره لا يفلح

وروي أن هارون لما جهز يزيد إلى حرب الوليد أعطاه ذا الفقار سيف النبي ﷺ، وقال: «خذه يا يزيد فإنك ستنصر به»، فأخذه ومضى، وفي ذلك يقول الشاعر مسلم بن الوليد في قصيدة يمدح فيها يزيد:

أذكرت سيف رسول الله سنته وبأس أول من صلى ومن صاما

خرج يزيد بن مزيد راحلًا إلى الوليد بن طريف، وجعل يحايله ويماكره، وكانت البرامكة منحرفة عن يزيد، فأغروا به الرشيد، وقالوا له إنه يراعيه لأجل الرحم، وإلا فشوكة الوليد يسيرة، وهو يواعده وينتظر ما يكون من أمره، فوجَّه إليه الرشيد كتابًا يقول فيه: «لو وجَّهت بأحد الخدم لقام بأكثر مما تقوم به، ولكنك مداهن متعصِّب، وأمير المؤمنين يقسم بالله، لئن أخَّرت مناجزة الوليد ليبعثنَّ إليك من يحمل رأسك إليه».

فلقي الوليد عشيَّة خميس في شهر رمضان سنة 179هـ، وبرز يزيد من بين الصفين ونادي: «يا وليد ما حاجتك إلى التستر بالرجال، أبرز لي؟!»، فخرج الوليد مفتخرًا بنفسه معتدًا بها، وتلاقى الرجلان على حذر شديد وطال بينهما الأخذ والرد ساعات طويلة من النهار القائظ حتى كلَّ فرساهما وأجهدا، وأدرك يزيد العطش وجف ريقه وهو صائم، حتى رمى بخاتمه في فيه وجعل يلوكه ويقول: «اللهم إنها شدَّة شديدة فاسترها»، وقال لأصحابه: «فداكم أبي وأمي، إنما هي الخوارج ولهم حملة فاثبتوا، فإنهم إذا انهزموا لم يرجعوا».

فكان كما قال، إذ حين بدأت المعركة حمل أصحاب الوليد عليهم حملة شديدة، فثبت يزيد ومن معه، ودارت رحى معركة قاسية، ثم نادى يزيدُ الوليدَ، وقال: «يا وليد، ما حاجتك إلى التستُّر بالرجال؟ ابرز إليَّ».

فبرز الوليد وهو يرتجز:

أنا الوليد بن طريف الشاري
قسورة لا يصطلي بناري
جوركم أخرجني من داري

وتقدَّم من يزيد وهو يضيف:

ستعلم يا يزيد إذا التقينا بشطِّ الزاب إيُّ فتىً يكون

ووقف المعسكران ينظران وينتظران نتيجة اللقاء بينهما، فتطاردا ساعة فأمكنت يزيد فيه الفرصة فضرب رجله فسقط على الأرض، وارتمي فوقه يزيد فأجهز عليه، ووجه يزيد برأس الوليد إلى الرشيد، وبكتاب الفتح مع ابنه أسد بن يزيد، وفي ذلك يقول أبو الوليد مسلم بن الوليد الأنصاري الشاعر المشهور، وكان منقطعًا إلى يزيد ومختصًا به:

سل الخليفة سيفًا من بني مطرٍ يمضي فيخترق الأجسام والهاما

لولا يزيد ومقدار له سبب عاش الوليد مع العامين أعواما

أكرم به وبآباءٍ له سلفوا أبقوا من المجد أيامًا وأياما

ولما وصل الخبر إلى الرشيد اعتمر في شهر رمضان، شكرًا لله على قتل الوليد بن طريف[1].

ولما انصرف يزيد بن مزيد إلى الرشيد قدَّمه ورفع مرتبته، وولَّاه أذربيجان، ثم كانت آخر الصفحات الناصعة للقائد العظيم يزيد بن مزيد عندما خرج سنة 183هـ لملاقاة الخزر ما وراء خراسان، فقد فتك خاقان الخزر بالمسلمين وأهل الذمة، وسبى أكثر من مائة ألف مسلم، وانتهك الخزر أمرًا عظيمًا لم يسمع بمثله في الإسلام، فولى الرشيد أرمينية يزيد بن مزيد مضافًا إلى أذربيجان، وقواه بالجند، ووجهه إليهم، وأنزل خزيمة بن خازم نصيبين ردءًا لأهل أرمينية. واستطاع يزيد بشجاعته وبسالته أن يطبق على خاقان الخزر في ملحمة ضارية تضعضع فيها جيش

(1) انظر تفاصيل ثورة رافع بن ليث في: الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 256، 261. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 5/ 304 – 306، 309. ابن خلكان: وفيات الأعيان، 6/ 31 – 32، 6/ 326 – 328. اليافعي: مرآة الجنان، 1/ 310. ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، 3/ 213.

الخاقان وولّى هاربًا، وبعد سبعين يومًا أقام فيها يزيد مُصلحًا ما أفسده الخزر عاد يزيد مظفرًا منتصرًا[1].

ذلك كان بعضًا من أخبار يزيد بن مزيد الحربية، فقد كانت سمعته العسكرية وصيته الذائع خير معين له على عدوه، حتى قال صريع الغواني مسلم بن الوليد:

قد عوَّد الطَّيْرَ عاداتٍ وثِقْنَ بها فهنَّ يتْبَعْنَه في كلِّ مُرْتَحَلِ

يعني: أنَّ الطَّير تنتظر أيام يزيد ومعاركه لتفترس أشلاء القتلَى في وقائعه. فلما سمع يزيد بذلك أمر حاجبه أن يبيع ضيعةً له ويعطي الشاعر خمسين ألفًا، فبلغ ذلك الرشيد فأرسل إليه بمال عظيم، وقال: زده خمسين ألفًا.

وقد علت شهرة يزيد بالشجاعة والكرم والمروءة؛ فوفد إليه الشعراء يمدحونه راغبين في عطائه. روي أن سلم الخاسر هجا يزيد بن مزيد، فقال:

ليت الأمير أبا خالد يزيد، يزيد كما ينتقص

فحلف يزيد بن مزيد أن يقتله إن وقع في يده، فقال سلم الخاسر يمدح يزيد بن مزيد:

إن لله في البرية سيف ين يزيدًا وخالد بن الوليد

ذاك سيف النبي في سالف الدهـ ـر وهذا سيف الإمام الرشيد

ما مقامي على الثماد وقد فا ضت بحور الندى بكفي يزيد[2]

وقال يزيد بن مزيد: أرسل إليَّ الرشيد يومًا في وقت لا يرسل فيه إلى مثلي، فأتيته لابسًا سلاحي مستعدًا لأمرٍ إن أراده، فلما رآني ضحك إليَّ وقال: من الذي يقول فيك:

(1) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 270. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 5/ 331. ابن عبد ربه: العقد الفريد، 1/ 213.

(2) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، 16/ 490. الذهبي: تاريخ الإسلام، 4/ 1008.

تراه في الأمن في درعٍ مضاعفة لا يأمن الدهر أن يُدْعَى على عجل

فقلت: لا أعرفه يا أمير المؤمنين. فقال: «سوءةً لك من سيد، قوم يُمْدَحُ بمثل هذا الشعر ولا يعرف قائله!، وقد بلغ أمير المؤمنين فرواه ووصل قائله، هو مسلم بن الوليد»، فانصرفت ودعوت به ووصلته ووليته[1].

وفي يزيد بن مزيد قال منصور النمري:

لو لم يكن لبني شيبان من حسب سوى يزيد، لفاتوا الناس بالحسب

وكان يزيد بن مزيد يكنى في السلم بأبي خالد، وفي الحرب بأبي الزبير، قال مسلم بن الوليد الأنصاري:

لولا سيوف أبي الزبير وخيله نشر الوليد بسيفه الضحَّاكا

ومع كل هذا وذاك من الجود والكرام والشجاعة فقد كتب له أن يموت خارج بلاده، فقد ولاه الرشيد أقاليم أرمينية وأذربيجان معًا التي دوَّخ الأعداء فيها فخرج بجنده إلى مدينة بَرْذَعَة في أقصى أذربيجان؛ لتكون مقر إقامته وذلك في النصف الثاني من عام 184هـ، ولم يطل مقامه كثيرًا فقد ختم حياته برحلة لا عودة فيها إذ فاجأه الموت عام 185هـ على فراشه[2].

ولما مات يزيد بن مزيد قام حبيب بن البراء خطيبًا، فقال: «أيها الناس، لا تقنطوا من مثله وإن كان قليل النظير، وهبوه من صالح دعائكم مثل الذي أخلص فيكم من نواله، والله ما تفعل الديمة الهطلة في البقعة الجدبة ما عملت فينا يداه من عدله ونداه»[3].

(1) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 6/ 332 – 333.

(2) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، 16/ 490. ابن خلكان: وفيات الأعيان، 6/ 339.

(3) أبو إسحاق القيرواني: زهر الآداب وثمر الألباب، 4/ 1149.

3 - خزيمة بن خازم التميمي

واحد من سادة العرب وممن لهم منزلة ومكانة في نفوس الخلفاء العباسيين، ومن أكابر القواد في عصر الرشيد والأمين والمأمون. قال الخطيب البغدادي: "وَأظن أصله خراسانيا إِلا أنه نزل بَغْدَاد وَأقام بِهَا إِلَى حين وَفاته"، وكان خزيمة بن خازم من بيت عظيم ذي مكانة في تاريخ الدعوة العباسية، فأبوه خازم بن خُزيمة التميمي من النُقباء السبعين المشاهير في دولة بني العباس، كما يعد هو القائد الأول بعد أبي مسلم الخرساني في وقت التأسيس، وكان بنو العباس إذا حلَّت بهم مصيبة ووقعت بهم كارثة استجلبوا خازم بن خزيمة أو ولدهُ خزيمة بن خازم، ولذلك عرف خزيمة بن خازم في بلاط العباسيين بـ (القائد)، حتى صار ذلك اللقب علمًا عليه في كتب المؤرخين.

وفي خزيمة وأهل بيته يقول الشاعر:

خُزيمةُ خيرُ بني خازم ... وخازمُ خيرُ بني دارمِ
ودارِمُ خيرُ تميمٍ وما ... مِثلُ تميمٍ في بني آدمِ
ولا ألوتُ الغُرَّ مِن هاشم ... وهمْ سُيوفٌ لبني هاشمِ[1]

وقد حظي خزيمة بن خازم بمكانة كبيرة عند الرشيد منذ أول خلافته، وذلك أن موسى الهادي كان قد عزم على خلع الرشيد وعهد لابنه جعفر من بعده سنة 169هـ، فلمَّا مات الهادي سنة 170هـ، هجم خزيمة بن خازم فى ليلة وفاته فأخذ جعفرا من فراشه، وكان خزيمة في خمسة آلاف من مواليه معهم السلاح، فقال: "والله لأضربنَّ عنقك أو تخلعها"، فلمَّا كان الصبح ركب الناس إلى باب جعفر، فأتى به خزيمة فأقامه على باب الدار في العلو والأبواب مغلَّقة فأقبل جعفر ينادى:

(1) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، 9/ 301. السمعاني: الأنساب، 10/ 313. أبو عبيد البكري: سمط اللآلي في شرح أمالي القالي، 1/ 697.

"يا معشر الناس، من كانت لي في عنقه بيعة فقد أحللته منها والخلافة لعمِّي هارون ولا حقَّ لي فيها"[1].

وكانت أول وقائع خزيمة بن خازم أيام الرشيد في أرمينية، فعندما مات المهدي انتفضت أرمينية إلى أن مات الهادي كذلك، فبعث إليهم الرشيد قائده خزيمة فقام بها سنة وشهرين، وضبطها أحسن ضبط فصلحت البلاد، وأعطي أهلها الطاعة. ثم ولَّاه الرشيد أذربيجان فبنى سورها وحصَّنها ومصَّرها وأنزلها جندًا كثيفًا[2].

كما كان خزيمة بن خازم قائد شرطة الرشيد سنة 172هـ ثم عزله عنها، وولَّاه البصرة والجزيرة، ولما خرج الخزر وأوقعوا بالمسلمين وأهل الذمة سنة 183هـ جعله الرشيد على نصيبين ليكون ردءًا ليزيد بن مزيد والي أرمينية وأذربيجان، وقد استطاع القائدان أن يصلحا ما أفسده خاقان الخزر وأعادا الهدوء للمنطقة.

كما ولي خزيمة بن خازم للرشيد قنسرين وحلب والعواصم في سنة 193هـ، وقيل إن ابنه القاسم بن هارون كان معه، ولما توفي الرشيد ولى الأمين أخاه القاسم على قنسرين والعواصم وولى خزيمة بن خازم الجزيرة وحدها، ثم عزل أخاه عن قنسرين سنة 194هـ وولاها خزيمة بن خازم، ثم إن الأمين ولى عبد الملك بن صالح الجزيرة والشام بعد أن أخرجه من حبس أبيه الرشيد بعد موته، فلما توفي عبد الملك بن صالح ولى خزيمة بن خازم قنسرين وحلب والعواصم سنة 197هـ[3].

ولمَّا عظم الخلاف بين الأمين والمأمون، وهمَّ الأمين أن يخلع أخاه المأمون كتب إليه خزيمة بن خازم: "يا أمير المؤمنين، لن ينصحك من كذبك، ولن يغشك من صدقك، لا تجريء القوَّاد على الخلع فيخلعوك، ولا تحملهم على نكث العهد

(1) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 232 – 233.

(2) البلاذري: فتوح البلدان، ص321. ياقوت الحموي: معجم البلدان، 5/ 93.

(3) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 270. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 5/ 331. ابن العديم: بغية الطلب في تاريخ حلب، 7/ 3256. الذهبي: تاريخ الإسلام، 4/ 1032.

فينكثوا بيعتك وعهدك، فإن الغادر مغلول والناكث مخذول"، ولمَّا لم ينتصح انحاز خزيمة إلى أصحاب المأمون، واشترك في حصار بغداد إلى أن قُتل الأمين، وكان خزيمة على قنسرين وحلب والعواصم فعزله عنها المأمون سنة 198هـ ووليها عبد الله بن طاهر، وظل خزيمة بن خازم مقيمًا في بغداد إلى وفاته يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة خلت من شعبان سنة 203هـ بعد أن عمي[1].

4 - موسى بن يحيى البرمكي

أحد القادة الشجعان في العصر العباسي، ومن كبار أمراء الدولة، وإن كان يحيى بن خالد البرمكي وولده قد تفرَّد كل منهم بخصال وشمائل، فإن موسى بن يحيى كان شابًا شجاعًا كافيًا ذا دَهاء ورأي. يحكي القاضي يحيى بن أكثم قال: سمعت المأمون يقول: لم يكن كيحيى بن خالد وكولده أحد في الكفاية والبلاغة والجود والشجاعة، ولقد صدق القائل حيث يقول:

أولاد يحيى أربع ... كأربع الطبائع

فهم إذا اختبرتهم ... طبائع الصنائع

قال القاضي: فقلت له يا أمير المؤمنين، أما الكفاية والبلاغة والسماحة فنعرفها فيهم، ففيمن الشجاعة فقال: في موسى بن يحيى، وقد رأيت أن أوليه ثغر السند[2].

وعن يحيى وولده يقول المسعودي: "لم يبلغ مبلغ خالد بن برمك أحد من ولده في جودة رأيه وبأسه وجميع خلاله، لا يحيى في رأيه ووفور عقله، ولا الفضل في جوده وبراعته، ولا جعفر بن يحيى في كتابته وفصاحته، ولا محمد بن يحيى في سروه وبعد هـمته، ولا موسى بن يحيى في شجاعته وبأسه"[3].

(1) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، 9/ 301. ابن العديم: بغية الطلب في تاريخ حلب، 7/ 3256. السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص219.

(2) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 6/ 221 – 222.

(3) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، 3/ 304.

وقد نال القائد موسى بن يحيى البرمكي ثقة أبيه يحيى وخليفته الرشيد، ولشجاعته ونبله صار سيف هارون الذي يقرع به المخالفين، ودرعه الحصين ضد الخارجين، ومن دلائل هذه الثقة أنه في سنة 176هـ هاجت العصبية القبلية بين النزارية (القيسية) واليمانية، فقتل بينهما بشرٌ كثير، وكان العامل على الشام حين هاجت الفتنة موسى بن عيسى، فلم يستطع أن يقاوم الفتنة وعجز عنها، واضطرب الأمر بالشام وكثرت الدماء وتفاقم الأمر، فبعث الرشيد من جهته موسى بن يحيى البرمكي وضم إليه من القواد والجنود جماعة، فأصلح بين أهلها، وسكنت الفتنة، وفي ذلك يقول بعض الشعراء يمدح موسى بن يحيى:

قَدْ هاجَتِ الشَّامُ هيْجًا ... يُشِيبُ رَاسَ وَلِيدِهِ
فَصَبتَ مُوسَى عَلَيْهَا ... بِخَيْلِهِ وَجُنُودِهِ
فَدَانَتِ الشَّامُ لَمَّا ... أَتَى نَسِيجُ وَحِيدِهِ
هَذَا الْجَوَادُ الَّذِي بَذّ ... كُلَّ جُودٍ بِجُودِهِ
أَعْدَاهُ جُودُ أَبِيهِ ... يَحْيَى وَجُودُ جُدُودِهِ
فَجَادَ مُوسَى بْنُ يَحْيَى ... بِطَارِفٍ وَتَلِيدِهِ
وَنَالَ مُوسَى ذُرَى الْمَجْـ ... ـدِ وَهُوَ حَشْوُ مُهُودِهِ
خَصَصْتُهُ بِمَدِيحِي ... مَنْثُورِهِ وَقَصِيدِهِ
مِنَ الْبَرَامِكِ عُودٌ ... لَهُ فَأَكْرِمْ بَعُودِهِ
حَوَوْا عَلَى الشِّعْرِ طُرًّا ... خَفِيفِهِ وَمَدِيدِهِ[1]

(1) انظر: الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 251 – 252. مسكويه: تجارب الأمم وتعاقب الهمم، 3/ 518. ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، 9/ 18. ابن كثير: البداية والنهاية، 13/ 582 – 584.

ولما نكب هارون الرشيد البرامكة سنة 187هـ كان موسى بن يحيى في بلاد السند، فبقي بها وقد عرف الأمين والمأمون له فضله وشجاعته، كما كان موسى مقدَّمًا عند ولاة السند جميعًا، حتى عندما عاد غسان بن عباد ببشر بن داوود المهلبي سنة 216ه مستأمنًا إلى دار السلام، لم يجد من يخلفه على ثغر السند أكفأ من موسى بن يحيى البرمكي، فقام بالأمر وأحسن إلى الناس.

والذي يظهر من وفيات الأعيان أنه قبل رجوع غسان إلى العراق سنة 216هـ كتب إليه المأمون بتولية موسى بن يحيى ثغر السند، فتولاه، واستطاع بدهائه وشجاعته أن يقتل راجه بالا ملك الشرقي من تلك الأطراف وقد أعجز ولاة السند من قبله، وكان قد امتنع عن الحضور إلى معسكر غسان فيمن حضر من الملوك. وحسنت سيرة موسى بن يحيى البرمكي وأثَر أثرًا حسنًا في ولايته، فاستمر حتى مات سنة 221هـ، وقام ولده عمران بن موسى البرمكي بالأمر من بعده[1].

(1) البلاذري: فتوح البلدان، ص428. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 5/ 568. عبد الحي بن فخر الدين الحسني الطالبي: الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام المسمى بـ (نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر)، 1/ 53، 56 – 58. الزركلي: الأعلام، 7/ 331.

obeikandl.com